ظهور الدِّين في الحضارات البدائية الأولى

مقدمة:

يقول الشَّعر الفرنسي "سان جون بيرس": «لا تاريخ إلاَّ تاريخ الرُّوح»، فهذه العبارة ليست بعبارة عابرة، بل هي من نمط الشَّطحات الصُّوفيَّة التي تختزل في أعماقها برقاً معرفياً صاعقاً.

إنَّ تاريخ الرُّوح هو تاريخ العقل، والفكر، والفلسفة، والدِّين، والفن، والشِّعر،... وإنَّ الدِّين هو الشَّكل الأكبر الذي تضمَّن تاريخ الرُّوح، وإنَّه قد مورس من قبل كلِّ النَّاس، خاصتها وعامتها، منذ العصور الحجريَّة بكافة مراحلها؛ **فما هي مراحل الدِّين ومظاهره في الحضارات البدائيَّة الأولى؟**

أوَّلاً– العصور الحجريَّة (الباليوليت):

يمكن القول أنَّ إفريقيا كانت قبل غيرها المهد الأول الذي تطور فيه الإنسان من الأقزام إلى الإنسان العادي الطُّول، فمن شمال وشرق إفريقيا تطور الإنسان القزم (بليسي أنثروبس) إلى إنسان (البرا أنثروبس) وقد تدفق هذا الإنسان باتجاه أوروبا وآسيا، وفي أوروبا ظهرت المنجزات الماديَّة والرُّوحيَّة لإنسان العصر الحجري القديم، وهي مُنجزات مهمَّة إلاَّ أنَّها بطيئة التَّطور، وفي العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) بدء انتقال ثقافة الإنسان من أوروبا إلى الشَّرق الأدنى وتحديداً الشَّرق العربي، وظهور الثَّقافة الميزولتية في الشَّام والعراق ثمَّ اتساعها وتطورها الهائل في الثَّقافة النُّيوليتيَّة التي كان شمال الرَّافدين نواتها المشعة واتسع لها قوس شمالي كبير يمتد من إيران إلى مصر ثمَّ ظهر الثَّقافة الكالكوليتية في جنوب الرَّافدين واتسع لها قوس آخر كبير يمتد أيضاً من إيران إلى مصر.

1)– الأيوليت: بداية الحجري وفجر الوعي:

الإنسان، الجليد، الحجر، الوعي... أربعة أمور تلازمت مع فجر الإنسانيَّة الذي استغرق 200.000 سنة[1]. فبداية العصور الحجريَّة هي بداية العصور الجليديَّة التي ترافق معها ظهور الإنسان خارجاً من الغابة ومنفصلاً نوعياً عن الحيوان[2]. وبدأ تشكل وعيه بالعالم وتشكل أوَّل لمسات وعيه المختلف عن الأحاسيس الغريزيَّة العمياء للحيوان، مستخدماً نوعين من الأدوات هي:

أ – الأدوات العظميَّة: واستعملها كسكاكين، وقرون الغزال التي استعملها للتقطيع والحفر بعد تحويرها[3].

ب– الأدوات الحصويَّة: وهي أدوات مختلفة الحجم يحصل عليها الإنسان من صقل وتهذيب الحصى.

وقد سمي الإنسان الذي صنع هذه الأدوات الأولى وفق طراز معين بالإنسان الصَّانع، وتدل انجازاته هذه على أول اتصال إيجابي بالطَّبيعة، وأوَّل عملٍ يقوم به الإنسان ولكنه يدلُّ بالدَّرجة الأساسيَّة على بدء وعي الإنسان وانتباهه لما هو

[1] – ليرمان روبرت: الطَّريق الطَّويل إلى الإنسان، تر: ثابت جرجس قصبجي، ط.1، المؤسسة الوطنيَّة للطباعة والنَّشر، بيروت، 1963م، ص.78.

[2] – خزعل الماجد: **أديان ومعتقدات ما قبل التَّاريخ، ط.1**، دار الشُّروق، عمان، 1997م، ص.34.

[3] – Campbell. Joseph: «The masks of god: Primitive mythology», Viking press, New York, 1959, p.359.

حوله فهي أولى خطوات الوعي الذي كان غافلاً.

2)– عقائد الباليوليت الأسفل (النَّار: ظهور المقدس):

إنَّ صناعة الأدوات الحجريَّة واكتشاف النَّار واستعمالها يُعدان من أهم إنجازات العصر الحجري القديم الأسفل على المستويين المادي والرُّوحي، وقد انعكسا على تطور وعي الإنسان ونشَّطا إمكاناته الرُّوحيَّة.

إنَّ اكتشاف النَّار واستعمالها أمر ينطوي على الكثير من الأبعاد العمليّة والرُّوحيَّة للإنسان، فالنَّار بما تنطوي عليه من قدرة غريبة على جعل الإنسان يتأمل صفاتها وآثارها وشكلها انعكست إيجابياً على القوة الرُّوحيَّة له وهيأتها لمرحلة قادمة. ولقد جعل استخدام النَّار الإنسان أكثر قوة من ذي قبل، وأدى دوراً هاماً جداً في تطوره اللاحق[1]، ودلَّت الآثار على إنَّ إنسان بكين استعمل النَّار في كهوفه الأولى في الصِّين، وأنَّ ظهور النَّار كان عاملاً نوعياً حرَّك في الإنسان قواه الدِّينيَّة المميزة لهذا العصر... وإنَّ فكرة الدِّين التي تستند إلى جوهر واحد هو (وجود المقدس). لقد كانت النَّار أوَّلُ مقدس احتك به الإنسان؛ ولعلَّ الإنسان القوي الذي يستطيع إيقاد النَّار واستعمالها والسَّيطرة عليها كام مثل "بروميثيوس" الذي تُشير الأسطورة اليونانيَّة إلى ظهوره مع ظهور الإنسان الأوَّل[2].

3)– عقائد الباليوليت الأوسط (الحيوان: اصطياد المقدس):

كان للسنوات السِّتين ألف التي استغرقها الباليوليت الأوسط (100.000 – 40.000) أهمية كبرى في ظهور أوَّلِ دين بشري، فبعد أنْ قامت النَّار بتحريك النَّوازع الدِّينيَّة الأولى باعتبارها (المقدس الأوَّل) افتحت أحاسيس الإنسان ومشاعره باتجاه تشكل ديني أعلى.

لقد كان الدِّين في بدايته معتقداً بسيطاً «تتركز حوله مجموعة من الطُّقوس والأساطير الخاصة بجماعة معينة من النَّاس – عشيرة أو قبيلة أو شريحة اجتماعيَّة – مثل هذا الشَّكل المحدودة للحياة الدِّينيَّة يُدعى عادة بالعبادة – Cult– ويتطابق مفهوم الدِّين مع مفهوم العبادة لدى جماعة صغيرة شبه منعزلة، فإذا اجتمع لشعب من الشُّعوب عدد من العبادات المتقاربة، والتي يختص كلّ منهما بجماعة من جماعاته، اسمينا شكل الحياة الدِّينيَّة هنا ديناً، واسمينا الشُّكل الفرعي عبادة»[3].

يمكننا القول أنَّ الباليوليت الأوسط سادت فيه عبادة أو عبادات أو عقائد دينيَّة لها طقوس معينة.

- **تقديس الحيوان:** بسبب تنوعها وظهورها الدَّائم معه في هذا العالم اللامتناهي ومنافستها له في الحصول على الغذاء بل وشراستها وقوتها التي لمح فيها تحشد القوة وتمركزها.

لقد اقترب الإنسان من المقدس الأوَّل (النَّار) وروضه وكان تدجين الإنسان للنار طريقاً لعبادتها، صحيح أنَّ الإنسان لم يُدجِّن الحيوان ولكنه اقترب منه واصطاده وعظَّمه من خلال رسمه في جدران الكهوف[4].

---

[1] – ألكسندر بيايف: **الميثولوجيا ونشوء العبادات القديمة**، تر: حسان إسحاق، **ط.1**، الأبجديَّة للنشر، دمشق، 1993م، ص.35.

[2] – تروي الأسطورة اليونانيَّة أنَّ "بروميثيوس" كان إلهاً مُضاداً تمرد على الآلهة وأخذ النَّار واعطاها للإنسان الأوَّل وعلَّمه كيف يستعملها، وأنَّ الله أقنع الإنسان الأوَّل بأنَّه يُشبه "بروميثيوس" بسبب حيازته للنار ومكاسبها. **ينظر**: Campbell. Joseph:Op. Cit, p.363.

[3] – فراس السُّواح: **دين الإنسان (بحث في ماهية الدِّين ومنشأ الدَّافع الدِّيني)**، **ط.1**، منشورات دار علاء الدِّين، دمشق، 1994م، ص.88.

[4] – Campbell. Joseph: Op. Cit, p.339.

إنَّ صيد الحيوان وأكل لحمه يُحيلنا دينياً إلى فكرة مُهمَّة وهي أنَّ الإنسان بعد أنْ كان يرى في (المقدس) بعيداً أصبح يرى فيه جزءاً من جسده خصوصاً إذا ارتبط الحيوان بالنَّار في طقوس افتراسية مشحونة بالتَّرقب والتَّأمل. وقد نجد في ذلك تفسيراً منطقياً في الدِّيانات الطُّوطميَّة التي كانت في الحيوان المقدس مبدأ جمع شمل القبيلة وأنّض افتراسه في طقوس دينيَّة جماعيَّة كان يعني توزع هذا المقدس/الحرام على أبناء القبيلة حيث يقوم بجمعها في صلة واحدة وقويَّة[1].

- **المدافن والقبور:** يعتبر إنسان عصر الباليوليت الأوسط هو الذي ابتكر المدافن والقبور، وهذا دليل آخر من أدلة الدِّين لدي هذا الإنسان، رغم أنَّ بعض الباحثين يعزون هذا الأمر إلى وعي اجتماعي أكثر منه ديني حيث يرى "توينبي" مثلاً تخلص الإنسان في هذا العصر من موتاه بطريقة شعائريَّة، بدل أنْ يعتبر جثثهم كأنها أقذار، كان يدل على أنَّه يرى أنَّ للإنسان كرامة لا تنتشر بين بقية أشكال الحياة[2].

والحقيقة أنَّ مدافن إنسان هذا العصر من أهم علامات تطوره الدِّيني، فإذا رأينا أنَّ الدِّين مكون من (العقيدة والطَّقس والأسطورة) فلا شكَّ أنَّ طقوس الدَّفن الشَّعائريَّة كانت بداية ظهور الطُّقوس المرافقة للعقيدة الدِّينيَّة. ويرى بعض الباحثين أنَّ إنسان هذا العصر كان له اعتقاد بالرُّوح من خلال طريقة معاملته للموتى، فقد اكتشفوا بقايا متكسِّرة لأكثر من عشرة جماجم لإنسان هذا العصر وكان بعضها محروقاً ومعه بقايا حيوانات وحشيَّة. هذه الجماجم كسرت قاعدتها، وهذا الأمر أشار إلى عادة أكل أدمغة الموتى التي مورست أيضاً من قِبل إنسان "بكين" كما تدل المكتشفات الأثريَّة[3].

لقد رأى إنسان هذا العصر أنَّ الرَّأس هو مقر قوة وروح الفرد، وأنَّه ربّما إذا تناول دماغه فإنّ هذه القوة أو الرُّوح تنتقل له.

إنَّ التَّفكير بالموت لم يأخذ بعداً شمولياً ميتافيزيقياً «ولذا فمن الطَّبيعي أنْ يتجه تفكيره في ظلِّ إمكانياته العقليَّة المحدودة، إلى أنَّ الموت ليس إلاَّ نتيجة لهجوم قوى معينة لا يمكن رؤيتها، وبذلك انصب تفكير الإنسان في تلك المرحلة من تطوره الفكري على سبب موت شخص مُعين بالذَّات بدلاً من التَّفكير بسبب الموت ذاته»[4].

4)– عقائد الباليوليت الأعلى (اللوحات و الدُّمى: تشكيل المقدّس):

يضع "هيغل" في معماره الفلسفي الفن والدِّين في آخر مرحلة من مراحل تجليات الرُّوح المطلق، ويتخذ إدراك المطلق عنده ثلاثة طرق تعطينا ثلاث مراحل للروح المطلق وهي (الفن، الدِّين، الفلسفة) وإذا كان التَّرتيب الهيغلي لا يتفق مع ظهور الدِّين قبل الفن فإنَّ ذلك يتعلق بالتَّأكيد بطبيعة فهم "هيغل" للدين[5].

لقد شهد عصر الباليوليت الأعلى ظهور نوعين من الفن هما: الفن التَّشكيلي (الرَّسم) المعبر عنه بجداريات الكهوف، وفن النَّحت الذي تجسد في ما يُسمى بالتَّماثيل الفينوسيَّة. ولم يكون ظهور الفن في هذا العصر من أجل الفن بذاته بل

---

[1] – سيغموند فرويد: **الطَّوطم والحرام**، تر: جورج طرابيشي، **ط.1**، منشورات دار الطَّليعة، بيروت، 1983م، ص.90.

[2] – أرلوند توينبي: **تاريخ البشريَّة**، تر: تقولا زيادة، **ج.1، ط.1**، الأهليَّة للنشر والتَّوزيع، بيروت، 1981م، ص.39.

[3] – Clark. Graham and Stuart Piggott: «**Prehistoric Societies**», London, 1965, p.209. **Voir aussi**, Clark. Graham: «**World prehistory and Natural Science**», London, 1960, p.37. **Voir aussi**, Hawkes. Jaequetta and sir Leondetd woolly: «**the beginning of Civilization**», London, 1963, p.69.

[4] – حنون نائل: **عقائد ما بعد الموت، ط.2**، دائرة الشُّؤون الثَّقافيَّة العامة، بغداد، 1986م، 23.

[5] – خزعل الماجد: المرجع السَّابق، ص.40.

هو استمرار لتشكل الدِّين وظهوره في عصر الباليوليت بعامة. وإذا عدنا إلى "هيغل" فإننا سنرى ارتباط الفن بالدِّين من خلال أولى عتبات الدِّين الذي يمثله السِّحر، والسِّحر الذي ظهر مع الدِّين في الباليوليت الأوسط يمفصل في الباليوليت الأعلى بين الدِّين والفن[1].

- جداريات الكهوف: إنَّ جداريات الكهوف التي اكتشفت في أكثر من 100 كهف بجنوب فرنسا، أثارت فضول العلماء وجعلتهم يخرجون بالعديد من النَّظريات. ولعل أقدم هذه النَّظريات هي التي تقول بأنَّ هذه الرُّسوم قد انجزت لغايات فنيَّة وجماليَّة فقط دون أنْ تحمل أية تفسيرات دينيَّة، أما النَّظريَّة الثَّانية فقد وجدت فيها أدوات سحريَّة استخدمها الإنسان للسيطرة على الحيوانات والايقاع بها انطلاقاً من مبدأ التَّشابه السِّحري[2].

أمَّا النَّظرية الثَّالثة فقد وجدت في هذه الرُّسوم جدلاً بين العنصرين الذَّكري والأنثوي ويتخذ الجدل صفة المركز الأنثوي والمحيط الذّكري، وفي هذا المضمار خَلُصَت الدِّراسات إلى النتائج التَّالية:

- ✓ المناطق المركزيَّة يشغلها دائماً ثلاثة أنواع من الحيوانات هي: الثَّور، البيسون (البقر الوحشي) ، الحصان، بينما تحتل بقية الأنواع الحيوانيَّة الأطراف والمناطق الثَّانويَّة.
- ✓ الثَّور يأخذ قيمة رمزيَّة أنثويَّة وكذلك البيسون، أمَّ الحصان فله رمزيَّة ذكريَّة، وإنَّ القيم الأنثويَّة تساوي الذَّكريَّة عدداً.
- ✓ الرَّمز الأنثوي دائماً في المركز، أمَّا الرَّمز الذَّكري فيتوزع بشكل مُتساوي حول هذا المركز وعلى أطرافه البعيدة والقريبة.

والاستنتاج الأخير من هذه النَّتائج يدلُّ على قيام ايديولوجيَّة دينيَّة لدى إنسان الباليوليت الأعلى تعتمد جدليَّة المبدأين الذَّكري والأنثوي في تعارضهما وتكافؤهما[3].

أمَّا النَّظريَّة الرَّابعة وهي الأقوى والتي تقول: أنَّ هذه الكهوف ماهي إلاَّ معابد أو كنائس الإنسان القديم وضع على جدرانها بكلِّ تبتل وعناية روحيَّة ما كان يُضفي عليه التَّقديس ونعنى به الحيوان، وهناك من طور هذه النَّظريَّة حيث يقول: «إنَّ إنسان الباليوليت الأعلى في هذه البقع القصيَّة المُظلمة، يبحث عن تواصل مع المجال الآخر، مع اللاهوت، من خلال شارات قُدسيَّة تربط بين العالمين... وقد اختار إنسان الباليوليت الأعلى شارته المقدسة من العالم الحيواني، لا ليعبدها بذاتها، ليستحضر من خلالها قوة العالم الموازي. وتحولت كهوف الدُّب المتواضعة التي اتخذها إنسان هذا العصر مقامات مقدَّسة إلى كاتدرائيات نحتتها الطَّبيعة في الأعماق، وأقام فيها إنسان هذا العصر نقاط تواصل مع المجال الآخر، من خلال هيئات حيوانيَّة تلخصت بشكل رئيسي في الثَّور والبيسون والحصان»[4].

---

[1] – خزعل الماجد: المرجع السَّابق، ص.40.

[2] – هناك قانونان في السِّحر، الأوَّل: هو قانون التَّشابه الذي يقضي بأنَّ الشَّبيه ينتج الشَّبيه، أو أنَّ المعلول ينتج علته وأنَّ باستطاعة السَّاحر تحقيق الأهداف والنَّتائج التي يُريدها عن طريق مُحاكاتها، أو تقليدها؛ أمَّا القانون الثَّاني: فهو قانون الاتصال. **ينظر**: خزعل الماجد: **بخور الآلهة. دراسة في الطِّب والسِّحر والأسطورة والدِّين، ط.1**، الأهليَّة للنشر والتَّوزيع، عمان، 1998م، ص.39.

[3] – خزعل الماجد: **أديان ومعتقدات ما قبل التَّاريخ**، المرجع السَّابق، ص.41.

[4] – فراس السُّواح: المرجع السَّابق، ص.150.

ثانياً– مظاهر دين العصور الحجريَّة (الباليوليت) وتفسيرها:

قام الدِّين في هذا العصر للوصول إلى (المقدس) عبر انتقالات متتالية من النَّار إلى الحيوان إلى شعائر الدَّفن وشعائر الفن الكهوفي ونحت الدُّمى الأنثويَّة. لقد استطاع إنسان هذا العصر تحسُّس (المقدس) ووجوده في نار الكهوف والنَّار التي كان يحوزها سيد القوم أو "الشَّامان"[1] فما هي الشَّامانيَّة؟

- **الشَّامانيَّة:** ليست دينا بالمعنى الدَّقيق للكلمة، إنَّما هي عبارة عن مجموعة من الطُّرق الإنجذابيَّة والعلاجيَّة الهادفة إلى الاتصال بالعالم الموازي وغير المرئي الذي تشغله الأرواح، وإلى الحصول على المعونة من هذه الأخيرة في تدبير شؤون البشر. وعلى الرُّغم من أنّضها تتجلى، عملياً، في أديان جميع القارات، وعلى الصُّعد الثَّقافيَّة كافة، اتخذت من آسيا الوسطى والشَّماليَّة قبلتها المفضلة[2].

إنَّ الشَّامان، يبدوا وكأنه السَّاحر والعراف والنَّبي والطَّبيب والحاكم لأنَّه كان قادراً على حيازة النَّار وإضرامها والسَّيطرة عليها واقتراب المقدس أكثر من الإنسان عندما تجلى في الحيوان واستطاع الإنسام اصطياده وحشد جسده به عن طريق الافتراس الطُّقوسي لسيد الحيوانات الذي كان أوَّل شعيرة طوطميَّة[3].

إنَّ فكرة سيد الحيوانات اعطت فكرة عن الصِّلة المقدَّسة للإنسان بالحيوان، فهي ليست صلة تأليه، أو عبادة بالمعنى المعروف، بل هي صلة سحريَّة، فالحيوان العظيم من نوع حيواني مُعيَّن، والذي كان الإنسان ينظر إليه بخشوع وخوف وهيبة يُشير لكلِّ ذلك النَّوع، وفي إقامة الصِّلة معه يتولد الإحساس عند الإنسان بإقامة صلة مع النَّوع كلِّه، وهذا مبدأ سحري (قانون التَّشابه) الذي يقضي بأنَّ الشَّبيه ينتج الشَّبيه، أو أنَّ المعلول يشبه علَّته، وأنَّ باستطاعة السَّاحر تحقيق الأهداف والنَّتائج التي يُريدها عن طريق مُحاكاتها أو تقليدها، فبالسَّيطرة على جزء منه يمكن السَّيطرة على النَّوع بأكمله. وعلى هذا الأساس يمكن إرجاع بدايات السِّحر إلى ذلك العصر كأول إرهاصات دينيَّة[4].

إنَّ الشَّامانيَّة هي عقيدة طقوسيَّة سحريَّة تتمظهر في جميع أشكال الدِّيانات السِّحريَّة (الفتيشيَّة، والأرواحيَّة، والطُّوطميَّة) ويكون محورها شخصيَّة الشَّامان نفسه وقد شهدت هذه العقيدة تطوراً ملحوظاً منذ الباليوليت الأسفل حيث كان الشَّمان يقوم بالدَّور البرومثيوسي المرتبط بجلب النَّار والرُّؤى الشَّامانيَّة المقدسة. ثمَّ تطور دور الشَّامان في تقليد سيد الحيوانات حتى أضحوا هم الكهنة ورجال الدِّين والأطباء وكانت توكل لهم مهام عديدة.

وخلاصة القول في الدِّيانات القديمة أنَّ السِّحر هو الذي ظهر أولاً في عصور ما قبل التَّاريخ قبل أنْ يظهر الدِّين وساد السَّحر أغلب زمن ما قبل التَّاريخ. كما ظهرت عندنا الدِّيانات البدائيَّة (الطَّبيعيَّة) التي تنطلق من قوى الطَّبيعة وتحاول محاكاتها، والتي ما زالت تعيش في عصرنا الحديث مثل الأديان الأفريقيَّة الحالية في بعض أصقاع أفريقيا أو في آسيا

---

[1] – **الشَّامان:** وأصلها من لغة "تونغوسيك" (لغة سيبيريا)، وتعني الشَّخص الذي يرى في ظلام الليل. **ينظر:** مدني قصري: «الشَّامانيَّة فلسفة حياة نحو تناغم العالم وخلاصه»، **مجلة أفكار، ع.347**، تصدر عن وزارة الثَّقافة بالأردن، عمان، ديسمبر/2017م، ص.49.

[2] – ميرسيا إلياد و يوان ب. كوليانو: **مُعجم الأديان**، تر: خليل كدري، **ط.1**، مؤمنون بلا حدود للنشر والتَّوزيع، الرِّباط، 2018م، ص.237.

[3] – **الطَّوطم:** في العادة هو حيوان يؤكل لحمه، مسالم، وفي النَّادر شجرة أو قوة طبيعيَّة (مطر – ماء). والطوطم هو الأب الأوَّل للعشيرة، ومن ثمَّ الرُّوح الحامية لها، والمعين الذي يرسل لها الوحي، والذي إذا كان خطراً يحمي أبناءه ويصونهم. وهو معتقد أسترالي قديم يعتمد السِّحر واحضار الأرواح. **ينظر:** سيغموند فرويد: **الطَّوطم والتابو**، تر: أبو علي ياسين، **ط.1**، دار الحوار للنشر والتَّوزيع، اللاذقيَّة، 1983م، ص.23.

[4] – خزعل الماجد: **أديان ومعتقدات ما قبل التَّاريخ**، المرجع السَّابق، ص.51.

أو في جزر المحيطات أو تلك التي عرفها العلماء في استراليا وغيرها.

ورغم خصوصيَّة كل شعب من الشُّعوب البدائيَّة في دينها وكيفية فهمها للحياة الرُّوحيَّة لكنن يمكننا بالإجمال تصنيف الأديان البدائيَّة (الطَّبيعيَّة) إلى مجموعة من الأديان التي لها صفات خاصة بها وهي:

1/ الأديان الفتيشيَّة.

2/ الأديان الإحيائيَّة (انيمزم).

3/ الأديان الطُّوطميَّة.

4/ الأديان الشَّامانيَّة.

يمكننا أنْ نطلق تسمية (الأديان السِّحريَّة) على هذه الأديان لأنَّها تعتمد جوهرياً على السِّحر، لكنها تشكل فضاءً دينياً مميزاً، تغيب فيها عقائد العالم الآخر ، وتحضر الطُّقوس بقوة أكبر.